



حوار: آلاء الرشيد

أود بداية قبل البدء في قراءة حوار مع الكاتب المغربي (محمد العربي أبو الحزم) ، الشكر الجزيل
للكاتب لاتاحة الفرصة لي الحوار معه

وكذلك شكري الجزيل للصحفية المتألقة (تغريد السعيدة) التي ساعدتني في نشر جزء من هذا الحوار في
صحيفة الغد الأردنية اليومية .

<http://www.alghad.jo/?news=185383>

“““

قلما نجد في وقتنا الحالي شخصيات لها دور في اثراء المستوى الثقافي في المجتمع، وإن وجدنا تكون في مجال أو حقل واحد فقط، أما الكاتب الأستاذ محمد العربي أبو الحزم فهو شخصية فريدة مبدعة أثرت الفن المغربي بجميع مجالاته ومناحيه، وأثرت على حركة الغناء الملتزم هناك، تميّز بإلمامه لفن الغناء مُعدّاً ومنتجاً وموزعاً موسيقياً، بالإضافة إلى الفنون الأخرى كالفن التشكيلي والخط العربي ورسم الكاركاتير، ولم تغب عن أبو الحزم الفنون الأدبية فهو شاعر وكاتب مسرحي ومؤلف لكتب متعددة الموضوعات، وله مقالات متنوعة في الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، وهو مؤسس لعدد من الفرق الإنشادية منها (فرقة البشارة) و(فرقة الرسالة) و(فرقة الهداهد)، في هذا الحوار نلقي الضوء على بعض من جوانب أعماله ونشاطاته ..

نص الحوار:

*ما الذي دفع أستاذنا للتفكير للخوض في فن النشيد؟

لم يكن دافعي للكتابة في موضوع فن "النشيد" تَهَمُّ طارئاً أَلَحَّ عليّ، أو فكرة عابرة التقطها قلبي فيما يُلتَقَط، وإنما هو مَحْضُ توفيق إلهي، وبذرة زرعها مَنْ زرعها وتعهدها وسقاها حتى غدت شجرة وارفة الأغصان ملأت من النفس مكانها المستحق. ومما زاد من اهتمامي وتَهَمُّي حيرة مَنْ يَهْتَمُّ وتَطَّلُعُ مَنْ يَتَهَمَّمُ، وحاجة السفينة إلى ما يوجِّها لأشركة تنظيراً للعمل وتديراً للحركة وتأطيراً للممارسة.

*هل سلسلة (فرقنا الغنائية/ أفكار من أجل التأسيس) التي تحدثت عن قضايا النشيد، نتاج المشاهدات الواقعية لحركة الفن والفرق الإنشادية ثم كُتِبَت كسلسلة، أم هي مواضيع نظرية طُبِّقت على فرق النشيد؟

حين بدأنا ممارستنا الفنية، قبل أكثر من عشرين عاماً، ما كان هَمُّنا غير الاستجابة لرغبات الناس في سد الفراغ المترتب عن عزوف الناس عن المعتاد من طقوس إحياء الحفلات، وتلبية رغبتنا نحن في التواصل الواعي الهادف مع الناس بهذه الوسيلة العجيبة. غير أن ذائقتنا السماعية المشحونة ابتداءً برصيد أهل الفن من الميدان العام، والاطلاع والمتابعة الجيدة لحركة الفن عندهم ما كانت تجد في أسلوب "الممارسة الإنشادية" آئذاً ما يصلح منافساً أو نداءً لأولئك.

ولا أدعي أنني كنتُ واعياً تمام الوعي بهذا الأمر في البداية، بدليل أنني كنت سعيداً بما كنا نقدم للناس من بضاعة مُزجاة، غير أن التجربة الجماعية وتراكمات العمل الميداني ومتابعة السابقين والمعاصرين المتقنين واتساع الأفق الذي كنا نسعى إليه مَحَصَّت حركتنا بما فتح أعيننا على مواطن الخلل فيها فراجعنا منهجنا في التفكير وأعدنا صياغة أسلوبنا في الممارسة بناء على أسس ثلاثة :

الأساس الأول: مشروع دعوي تغييري شامل للفرد ول الأمة، مجاله الدنيا والآخرة، لا تختلط فيه الوسائل بالغايات. وهذا ما يعصم الحركة الفنية من التخطئ والتيه. وكتاب: "رسالة الفن" (2003) محاولة لتبسيط نور المشروع الكبير الشامل على العمل الفني، و"تأصيل حركي" لممارستنا الفنية، وتوضيح أهدافها وتحديد لغاياتها .

الأساس الثاني: تكوين فني علمي يأخذ من تجربة البشرية في علوم الموسيقى والغناء الحكمة التي هي ضالة

المؤمن لِنَزَكِيَّيَ بِهَا حركتنا الفنية. وكتاب: "فن الغناء" (2004) أرضية علمية يستعين بها الممارسون في الميدان على الجانب التقني الفني لأن الله تعالى يجب إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه .
الأساس الثالث: توجية للممارسة الميدانية وربط بين الفهم العميق المطلوب إلينا وبين ما تحتججه الدعوة ليكون لها قبولٌ من ربنا عز وجل ومكان في قلوب الناس. وكتاب: "فرقنا الغنائية/ أفكار من أجل التأسيس" (2006) محاولة للإجابة عن تحديات الحركة الفنية في الميدان بناء على ما سبق.

*حدثنا عن علاقتك مع المنشد القدير أبو الجود (محمد منذر سرميني)؟

علاقتي بالمنشد الكبير أبي الجود نموذج لما يمكن أن يسود بين الممارسين من محبة وتفاهم وتعاون رغم ما يمكن أن يكون في التفاصيل والجزئيات من خصوصية لدى كل طرف، والأستاذ أبو الجود وإن كان حاز قصب السابقة في الممارسة الميدانية وأثرها بإبداعاته التي تركت في الميدان بصمة لا تُمحى، إلا أنه هو هو في تواضعه وهِمَّتِهِ وحرصه على صفاء المجال وتقديمه وتحقيقه لأهدافه، ولا يتحرج من الاسترشاد بآراء غيره فيما يبدع ويتحرك.
وقد زرته سنة 2002 وأمضيت معه عشرة أيام في حلب الشهباء عرفت عنه فيها الكثير مما كان يغيب عني، والتقينا في مهرجان سكيكدة بالجزائر صيف عام 2006 وملتقي هنا كلما زار المغرب لنجدد العهد ولنتأمل مسيرة هذا الفن وهذه الدعوة .

*ماذا أثرت تلك العلاقة في تنمية الثقافة الفنية ودعم مسيرة الفن المغربي الإنشادي؟

لقد كان أبو الجود وباقي الفرسان (الشيخ الفنان أمين الترمذي وأبو دجاجة وأبو مازن) في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات من القرن العشرين المدرسة الأساسية لكل من كان يخطو خطواته الأولى في هذا الدرب. وهذا الشكل الفني (المجموعات الغنائية) ليس جديداً على المغاربة، فقد ظهرت في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الماضي الظاهرة "الغياوية" مع "ناس الغيوان" و"جيل جيلالة". غير أن بعض العناصر في الطرح وفي الخطاب وبعض الخصوصيات في الشكل هي التي صرّفت فرقنا الإسلامية في المغرب عن الاستلهام الواعي من تجربة تلك الظاهرة .

وإنني إن كنت أشيد بتجربة أبي الجود وباقي الفرسان فليس لنستسخ منها نسخاً طبق أصلها، بل لتعلم منها أهم أسباب نجاحها والتي أوجزها فيما يلي:

1-توظيف شكل امتداد لمدرسة الموشحات والقود الحلبية يتذوقه من كان يخاطبه أولئك الفرسان في

- مكانهم هم وزمانهم هم، (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)
-2توظيف ألوان غنائية جديدة كلون "المونولوج" ولون "النشيد".
-3طرح بعض الموضوعات الجديدة والمتنوعة مواكبة لما يعيشه الناس أفراداً وأمةً .
-4التركيز على الإبداع كلمةً ولحناً بدل الاقتباس.

*إلى أي صعيد أثرت رحلاتك الفنية العربية والأجنبية وإحياءكم سهرات فنية مختلفة؟ وماذا أضافت للجمهور المتلقي؟

ما أستفيده من أي رحلة فنية أعظم بكثير مما يمكن أن أضيف إلى من يُضيفني فيها. أستفيد من الرحلة بما هي تجربة إنسانية - قبل أن تكون تجربة فنية - تفتح أمامي أبواب معرفة مجتمعات جديدة عليّ بتقاليدها وطقوسها وأذواقها وشرائعها وخبراتها ورجالاتها وتاريخها وواقعها وفنونها ولهجاتها ونظرتها للحياة. والتواصل مع الجمهور مباشرة يعلم الفنان الحكمة والأدب والتواضع واستيعاب الناس على اختلاف أوديتهم وتنوع مشاربهم، ويقوي لديه ملكة الموازنة والترجيح وحسن الاختيار.

*نجد (محمد أبو الحزم) تستهويه الفنون المختلفة كالفن التشكيلي والخط العربي ورسم الكاركاتير، هذا غير ما عرفناه عنك في الفن الغنائي مُعداً ومنتجاً وموزعاً موسيقياً، فما الرابط بين هذه الأمور؟

إن كان الأمر كذلك فالرابط هو فضل الله ومَنُّه الذي لا طاقة لي على شكره. فإن تحدثتُ بلغة الأسباب، وهو تعالى مسبب الأسباب، فللبينة العائلية التي نشأت فيها أثرٌ ظاهرٌ جليٌّ، وللقدر الذي جعلني أتنقل -مُذْ وُلِدْتُ وبِحكم طبيعة وظيفة الوالد حفظه الله- من مدينة إلى مدينة حتى تجاوز عددها عشرين ما بين الجبلي منها والساحلي والصحراوي على طول البلاد وعرضها، وتجاوز عدد الدور التي سكنتها أربعاً وعشرين. فلعله كان لكل طقسٍ ولكل تضاريسٍ ولكل طبيعةٍ وبيئةٍ وشَمٍّ وعلامةٍ في نفسي وأثرٌ. أمّا إن أنعم عليك المنعم المتفضلُ بمن يدلك عليه تعالى فلا تسألني عن سبب العطاء لأنه سبحانه يخلق وينسب إليك، ولا تستغربي بركات القسمة لأن سرّها بيد قاسمها. والله عز وجل في خلقه شؤون وشؤون.

*تجلى دورك في تأسيس عدة فرق: (فرقة البشارة) و(فرقة الرسالة) و(فرقة الهداهد)، فما هي الأسس والإضافات التي اعتمدت عليها لتأسيس تلك الفرق لتمييزها عن غيرها؟

لكل فرقة من هذه الفرق أسلوب في خاص وأهداف مقصودة ودوافع مختلفة وإلا لما احتاج الأمر إلى بناء مُبتكر واسم جديد وجهْد مضاف، فرقة البشارة (1990) أسست على أنها فرقة طلابية تجوب الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية والثقافية، وتتخذ من الشكل المتعارف عليه لدى "الفرق الإنشادية" أسلوباً فنياً يعتمد التجاوب بين الأداء الفردي والأداء الجماعي، وعلى الدفوف آلات مصاحبة ليس إلاً. أما فرقة الرسالة فأسست بأسلوب فني يعتمد توظيف كل أدوات التعبير الموسيقي الآلية والصوتية، والهدف التواصل مع شريحة من الناس لا جواز للمرور إلى آذانها وقلوبها إلا بهذا الشكل الفني. وعلى هذا الأساس أنجزنا الشريط الأول "في رحاب الله" (2001). أما فرقة الهداهد (2004) فهي أسلوب مختلف يعتمد توظيف أساليب الأداء الغنائي الفردي بأنواعه والأداء الغنائي الجماعي بتقنياته المتعارف عليها في علم الموسيقى. والهداهد تَجَمُّعٌ لكثير من الطاقات الفنية التي تشترك في مشروع واحد ليصل العدد في وقت لاحق إن شاء الله تعالى إلى العشرات، والمبرر ما يتطلبه هذا الشكل الفني من عَدَدِ الطاقات الصوتية التي تستطيع تنفيذ وتوظيف تقنيات الغناء الجماعي ببراعة ودقة. والألبوم الأول من البردة فاتحة وتأسيس لما بعدها إن شاء الله تعالى.

وكل من هذه الفرق ليست بديلاً عن أُخْتِيهَا، بل هي إضافة نوعية الهدف منها التواصل مع شرائح جديدة من الجمهور. والجمهور ألوان وألوان لكل منها جواز مرور مناسب لا يعوضه غيره. ونحن في أمس الحاجة إلى طَرَقِ أبواب الكثير من الأشكال التعبيرية التي لا نزال نتردد في ولوجها.

*ألا يفكر (محمد أبو الحزم) بإنشاء موقع يجمع فيه مقالاته وأشعاره وكتبه لتكون مرجعاً؟

إنشاء موقع إلكتروني ليس هدفاً مقصوداً لذاته، بل هو جسر وصل بين المهتمين والمتابعين وبين منابع العلم والمعرفة والخبرة النافعة للروح المغذية للفكر الموجهة للحركة. إنشاء الموقع مجرد وسيلة تُطلَبُ من ورائها أهداف. الفكرة حاضرة، والأهداف واضحة محددة، والخطة مبسطة مرسومة -بفضل الله وحده- ولكنها عزمة تحتاج إلى بركة الجهود والإمكانات وإلى همّة فريق عمل يسهر على الإنجاز ويتابع ويُفَعِّلُ ويتعهّد ويُقَوِّم. بهذه العقلية نعمل على هذا المشروع الذي أسأل الله تعالى التوفيق فيه والسداد .

*هل تؤسس وتدرّب الفرد في الفرق الإنشادية على قدراته الصوتية والأدائية فقط أم تنبيه روحياً وفكرياً وثقافياً؟

الأصل في الفنان أنه حامل رسالة هذا الدين العظيم إلى كل الناس في كل العالم بحكم أن ديننا عالمي الرسالة. والغناء أداة هذا الفنان ووسيلته التي يتوصل بها إلى آذان الناس وقلوبهم. وفهم طبيعة الناس المخاطبين بهذه الرسالة وطبيعة الميدان الذي يتحرك فيه هذا الفنان بكل عقباته وتحدياته وضروراته وإكراهاته، كل هذا يحتم علينا تسليح الممارس بفهم أصيل وخطاب شامل وأسلوب حكيم وأدوات جميلة تثير انتباه الناس إلى ما لدينا من بضاعة. وأساس ومصدر القوة والبركة والتأثير هو روح هذا الفنان إن اتخذ من فنه وسيلة للتقرب إلى الله تعالى قبل أي شيء، ولإدراك أعلى المراتب في سلم العبودية لله تعالى ذكراً لله وانكساراً بين يدي الله وتواضعاً لله وخفضاً للجناح وتيسيراً على عباد الله. ولا يسلك الفنان إلى هذه الغاية إلا إن كان له محض إيماني وصحبة ربانية تُذكرُهُ أنه عبد فقير إلى رحمة الله تعالى وأنه مستأمن على الموهبة التي منحه الله إياها، وأنه ينبغي أن يستعداً للقاء ربه في كل لحظة ليكون فيها إما غازيا لقلوب الناس بمضمون الرسالة اللابسة لبوس الفن أو مُحدثاً نفسه بغزوها بالتي هي أحسن لا التي هي أخشن. وربما وجدَ العبد من يُقَوِّمُ صوته وأدائه... وربما وجد من يعيُّ فكره بالمعلومات.. ربما.. ولكن من له بعَارفٍ مُؤْتَمَنٍ يأخذ بيده إلى الله تعالى يُعرِّفه إياه كما عَرَفَهُ أَحِبَّاءُهُ ومحبوبه في سياق حركة جماعية تتطلب الجمع الحكيم في القلب الواحد بالحركة الواحدة والإرادة الواحدة بين الغاية الفردية وغاية الأمة الجماعية؟؟؟

أمّا عني وعن غيري ممن يعمل في الميدان فإن دورنا هو أن نجتمع على الله تعالى تحت ظل النبوة المنيف إزاء منبرها الشريف في مجالس ذكره التي تحفها ملائكتُه وتغشاها رحمته وتَنَزَّلُ على أهلها سكينته ويُذَكِّرُ رُؤَادَهَا فيمن عنده تعالى، يُذَكِّرُ بعضنا بعضاً بأن العمل الفني كُلُّهُ كُلُّهُ وكل تفصيلاته وجزئياته إن هو إلا وسيلة يتعبدها المولى تعالى بالإخلاص فيها لذاته، وبإتقانها طلباً لخبته ومحبوبته. هذا هو الأساس والمنطلق والسند. وإلى هذا نركّزُ على الفهم السليم الأصيل الصافي والعلم الجيد النافع الكافي الذي يُوْمِنُ العمل الفني في محراب العبودية لله تعالى. أما الجانب التأطيري الفني التقني فنحن نتعلم منه ما نلمس حاجتنا إليه في ميدان العمل، وليس ما تُتَخَمُّ به الرؤوس ولا يُسْتَثْمَرُ استثماراً. ونحن إلى الآن ومنذ سنة 2000 نسير، بعون الله تعالى، بهذا الأسلوب في قسم تأطيري فني أعده تجربةً جديرةً بالمتابعة في العمل الفني الإسلامي.

*ما ضرورة وأهمية استخدام الموسيقى في التشيد؟

سبق أن طرقت باب هذا الموضوع في "فرقنا الغنائية"، إن الموسيقى ليست جنساً تعبيرياً غريباً عن الكلمة الشاعرة لِنَصْرَ على هذا التساؤل؛ وإنَّ بينهما لأُلْفَةً يحسها مَنْ تَذَوَّقَ هته وتلك. وعلى من يتساءل عن ضرورة استخدام الموسيقى في "النشيد" أن يتساءل أولاً عن ضرورة استخدام كلمات شاعرية موزونة مقفاة جميلة الصياغة بديعة الأسلوب بدل الكلمات المنثورة الجافّة المباشرة! بل عليه أن يسائل نفسه: الله تعالى خلق الطيور والعصافير وألهمها التسبيح فيما نسمعه من زقزقات، فما ضرورة ما لا نفقهه من تساييحها في الطبيعة من حولنا؟ والله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، فما ضرورة خريره لحركته هو ولأسماعنا نحن لولا أنه نغمة جميلة تذكّرنا بِرِقَّتِهَا الرفيقة المناسبة إلى آذاننا قبل مَصَبِّهَا بمسيرنا المرسوم إلى الله تعالى وبلقائنا المختوم بين يديه في اليوم الموعود؟ وما ضرورة هدير البحر لساكني أعماقه لولا أنه خطاب قوي مجلجل يهتف بِصَمَمِ نفوسنا الغافلة عن الخالق ونحن أولى منه بالاستجابة؟ والأمر في رأيي الخاص يدور أساساً حول مدى قدرتنا على إحسان توظيف هذه الموسيقى في ما نبدع. الموسيقى خلق عجيب من خلق الله تعالى، فإن أساء البعض توظيفه فلا نَأْخُذَنَّ هذا المخلوق البريء بذنب المسيئين إليه.

*ما رأيك برابطة الفن الاسلامي؟ وهل هناك تعاون فيما بينكما؟

أذكر - للتاريخ ليس إلّا - أن الفكرة جزائرية وُلِدَتْ في الجزائر سنة 1990 إبان أحد المؤتمرات الإسلامية، وأصحابها كانوا إذ ذاك طلبة شبابا من أهل الصحوة المباركة. وقد أقرَّ المنشد محمد أبو راتب بهذا الأمر حين التقينا في سكيكدة بالجزائر صيف العام الماضي. وكنت التقيت وزمراً من المنشدين الأستاذ أبا راتب، بطلب منه، في 25 يوليوز/ تموز 2002 هنا في المغرب بمناسبة مشاركته ومشاركة فرقة البشارة في مهرجان الرباط، وكان يحمل معه فكرة الرابطة مُجَرَّدَةً، ولم يضع بين أيدينا آنئذٍ مكتوباً لهذا المشروع نتأمله ونفحصه ونناقشه .

وقد اطلعت على خبر تأسيس الرابطة في موقع "إسلام أونلاين" مع بعض مداخلاتٍ مِنْ فقهاء وإعلاميين وأدباء ومنشدين، وبداً من خلال ما قرأت ومن خلال طبيعة تحرك أصحاب المشروع - إلى حدود هذا الحوار - أن الرابطة تُعْنَى -من فن الغناء -بلون خاص ومحدّد منه هو هذا اللون المعروف بـ"الإنشاد الإسلامي" الذي يعتمد- حصراً- على الصوت البشري وعلى مصاحبة الدفوف.

ولا يضير أن يقتصر الأمر على ما اقتصر عليه، وجهود المُتَبَيِّنَ لفكرة المشروع محمودة ومقبولة إن شاء الله عز وجل، لكنني أرى أن نُفَسِّحَ في الأمر شيئاً قليلاً إن أمكن. فـ"مشروع رابطة الفن الإسلامي الْعَالَمِيَّة" -وقد أراده أصحابه عالمياً- يُسْتَحْسَنُ ألاَّ يُفَصَّلَ على مقاسٍ لا بسٍ واحد بينما يعيش في هذا

العالم الشامي والخليجي والهندي والإفريقي والمغربي والصيني والأوربي وما شئت من أجناس وشعوب وقبائل؛ ويُستحسن ألا تُسيج أنفسنا وفهمنا وإرادتنا وأفقنا ومشروعنا من أول يوم بسياج أحمر شائك لا مَنفذ منه إلى ظاهره، ولا إمكانية فيه للامتداد والاتساع. وإن نعت المشروع بنعت "الإسلامية" يقتضي استحضر واستيعاب ومشاركة كل ألوان الطيف الإسلامي مهما كانت طبيعة الاختلافات الفقهية وزوايا النظر الفكرية والمنطلقات الحركية ما دام أن لكل منها أصلاً من الشرع وفهماً من الوحي وسنداً من آراء العلماء الأجلاء الذين علّمونا -فيما علّمونا- آداب الاختلاف وحدوده ودرجاته، وما دما نعمل ونجتهد ويتنوع اجتهادنا في "الشكل" والجوهر واحد والغاية واحدة. وإن التحدي العظيم أمام مشروع الرابطة أن يستطيع الربط بين كل ألوان الطيف المتنوعة في لوحة فنية جميلة واحدة .

*الفن المغربي زاخر بالأصيل والنفيس، لماذا تختفي هذه الأصالة عن بلاد المشرق والخليج؟

أظن أن لـ "عقدة المشرق والمغرب" جذوراً تاريخية وسياسية عميقة. وقد تسلسل داء السياسة والتاريخ إلى مجال الأدب والشعر والفكر (والإعلام في عصرنا الحاضر) وحتى إلى الفقه وعلوم الدين. وقد حاول الأديب الأملعي والعلامة الجليل سيدي عبد الله كنون رحمه الله (1989/1908) في كتابه النفيس: "النبوغ المغربي" إعادة الاعتبار إلى أهل المغرب الذين رأى في مقدمة الكتاب أنهم لم يجتهدوا في التعريف بإبداعاتهم بما يكفي ليعترف بها أهل المشرق.

وأظن أن المسؤولية مُشتركة فيها بين المشرق والمغرب معاً. فلا أهل المغرب يعترفون، بعضهم، إلا بما طلع عليهم من مطلع الشمس، ولا أهل المشرق يُقرّون بمكانة أحد من مغربها إلا ما كان مخنوماً بخاتمهم هم. ولهذا قال الإمام ابن حزم رحمه الله (456 384 هـ) بيته المشهور:

أنا الشمسُ في جَوِّ العلوم منيرة *** ولكنَّ عَيْبِي أَنَّ مَطْلِعِي الْعَرَبُ

وقد زاد من هذه العقدة تعقيدا هذه الحدود المقطّعة أوصال الأمة الواحدة المخاطبة بـ "يا أيها الذين آمنوا"، حتى استأنسنا بالمثل الشعبي المعروف: "إيش جمع الشامي عالمغربي؟" وما تساءل المسلمون من قبل: "إيش جمع المكي بالمدني؟" و"إيش جمع العراقي بالعدي؟" و"إيش جمع الفارسي بالعربي؟" و"إيش جمع الحبشي بالرومي؟"!!! ما تساءلوا لأنهم عرفوا سرهم الجامع المانع فما فرطوا في حبله المتين حتى خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ...

كما أن المغرب عاش مرحلة من تاريخه مُقْبِلاً على ذاته عَصِيّاً على الغريب منيعاً على الدخيل بينما كان في المشرق للدولة العثمانية آثار وآثار وقفت عند حدود المغرب الأقصى، وكان للحملة الفرنسية "البونابرتية" صولةً وجولةً حَمَلَتْ معها إلى المشرق بعض "المفردات" الجديدة عليه لحضارة الغازي الأوروبي. ولهذا كان طبيعياً أن يستثمر المشرق هذه المفردات للتعريف بإبداعاته ونشرها ولا نَجِدُ نحن منها (أقصد المفردات) ما نستثمره للهدف ذاته. وَخُلُوُ اليد من هذه المفردات أو سوء استثمارها لا يعني غياب الإبداع أو ضعفه عندنا .

ولعلنا - في مغرب الشمس - نَسْبَحُ في محيط من الكنوز روحاً وثقافةً وقتاً نعرفها نحن حق المعرفة ولكن أهلنا في مشرقها لم يكتشفوها بعد. وعلى أية حال فالساعة لن تقوم حتى تطلع الشمس من المغرب!

*من خلال قراءتي لمقالاتك وكتابتك لاحظت تميز كلماتها وقوة ألفاظها وتنوع مفرداتها، ألا ترى أن ذلك يُجهد القارئ والعامل في الحقل الإنشادي فيفضّل الابتعاد عن قراءتها؟

إن كان في هذا الأسلوب تَمَيُّزٌ في الكلمة وقوة في الألفاظ وتنوع في المفردات كما تصفين فلا أظنُّ أنه يُجهدُ القارئ. إن طبيعة الكتابة التي أكتبها وطبيعة الأهداف الذي أتوخاها تُمَلِّي عليّ نوعاً من الأسلوب مُحدّداً ولوناً من الخطاب خاصاً. وأظن أن للأمر علاقةً بالنعوذ ليس إلا. وكثيراً ما أفتح الأقواس فيما أكتب لأطلب إلى القارئ العزيز الصبر عليّ حتى أثبته ما بنفسه وغياً وبقيناً مني بقصوري عن بلوغ الهدف إن لم يُعني هو بجهدده ويتكرّم علي بصبره .على أن الكتابة في بعض الموضوعات وتنوع مشارب القراء تضطريني إلى التصريح حيناً وإلى التلميح حيناً، وإلى بثّ الفكرة ما بين السطور مرة وإلى المدارة مراراً، وإلى الافتقار إلى عون الله تعالى في كل حين. كما أن لمفردات اللغة العربية القرآنية دلالات تختلف من لفظة لأخرى وإن كان ظاهرها واحداً. و"اللغة أداة الفكر"، وفكرٌ أصيل لا بد أن تُترجمه لغةٌ أصيلة لأن طبيعة الوعاء كثيراً ما تؤثر في محتواه.

*ومن أين اكتسبت فصاحتك في اللغة العربية؟

أما ما تذكرين من فصاحة فإن كانت فهي من فضل الله ومَنه وَخَدَه، ثم مما يَسَرَّ لي سبحانه من أسباب الظاهر منها والدَّ فاضلٌ شاعرٌ أديبٌ وفقهه جليل، حفظه الله تعالى ومتَّعني برضاه، أنشأني وإخوتي على حب العربية وآدابها، وصحبة دالة على الله عز وجل تربط القلب والفكر والوجدان بالقرآن وبلغه القرآن وبروح القرآن وبأنوار القرآن. واللغة من الدين، فمن قماون في نصيب من اللغة فقد قماون في نصيب من الدين .

*بردة الإمام البوصيري وتليحها وإنشادها عمل ضخم يستحق الوقوف عنده، ما الذي دفعك لهذه

المغامرة؟

لعلك قرأت مقدمة "تحت ظل النبي" صلى الله عليه وسلم، ولعلك اطلعت على ما أشرت إليه إشارةً دون تفصيل من سبب إقدامي على تلحين قصيدة البردة للإمام البوصيري رضي الله عنه وأرضاه. وما أستطيع الإفصاح عنه الآن هو أنني ما فكرت في تلحين قصيدة البردة يوماً ولا بادرت من تلقاء نفسي، وإنما اقترح علي الأمر اقتراحاً بل عزم عليّ فيه. وقد كنت واعياً من اللحظة الأولى أن الأمر عسير عسير إلا إن يسره الله تعالى عليّ. ذلك أن للبردة أُلحاناً عدّةً يُصعَّبُ عاملُ المقارنة بها مهمتي في إنجازها. فإن رآها جنابك "مغامرة" فَأَنعمَ بها من مغامرة إذ كان لها من البركات علي ما أحمد الله تعالى عليه حمداً. الأصل في البردة أنها مجموعة من المعاني التي عاشها الإمام البوصيري رحمه الله تعالى فَأَحَبَّ أن نشاركه في تذوقها. واللحن في البردة مجرد وسيلة للاستئناس ومغالبة طول القصيدة والصبر على مَبَنّاها لمن لا يقوى على التعامل مع الكلام مُجَرِّداً. فَإِنْ تعاملنا نحن مع القصيدة الشريفة فلا نُنسَ أنها معانٍ روحية سامية بِسْمُو الممدوح صلى الله عليه وسلم، وبركة ما فتح به المولى تعالى على مبدعها رحمه الله، ولا ننس أننا نسمو بهذه المعاني في ملكوت حبه صلى الله عليه وسلم إن استمعنا إليها بأرواحنا وَغَضَضْنَا، مُوقِنًا، من بَصَرِ "الرقيب الموسيقي" الذي يوقفك بملاحظاته على اللحن وعلى الأداء مرة مرة، فيقطع عليك خلوتك الروحية وحبل ما يُسْتَطَابُ من راقِي المعاني.

تم بحمد الله